العصر كهرفلند (Hufeland) وبرغريف (Burggræve) وريشه (Richet) الى ان أعظم اسباب انحطاط القوى وتوعك المزاج في زماننا انما هي المآدب الفاخرة والولائم المتعددة المآكل التي تكثر فيها معاقرة الخمرة. وهؤلاء أئمة الطب اغلبهم من البروتستنت او من احرار الفكر لا يعترفون بسلطة الكنيسة على اشتراع السُّنن الا انهم في مسألة الصوم يطنبون على حكمة ارباب الدين ويؤدي بهم ثناؤهم الى ان يقولوا: « لو لم يُفرَض الصوم بين الفرائض الدينية لاقتضى سنُّه كشريعة بشرية لما يترتب عليه من الفوائد الصحية »

وكانت الشرائع الرومانية فرضت على اهل رعيتها الا يتجاوزوا في مآدبهم حداً معلوماً. ومن حكم العرب: انَّ افضل الدواء ان ترفع يدك عن الطعام وانت تشتهيه. وقد كتب احد فلاسفة زماننا: « انهُ ان الامور الحرية بالأسف انَّ قوانين الدول لم تتخذ الوسائل الفعالة لصدّ الشرور العديدة الحاصلة من اختزام سنَّة القناعة في الاكل والمشروبات. ولو تصدَّق كثيرون من اهل الثروة بعُشر ما يصرفونهُ في المآكل الزائدة لسدُّوا عوز ألوف من الفقراء الذين لا يملكون قيتة ليلة ولا شروى نقير »

ولكن دعنا نقف عند هذا الحدّ لئلاَّ يرمينا القرَّاء بعدم الوفاء فيقولون اننا رقينا منبر الوعظ. وكلُّ شيء في حينهِ ومكانهِ حسن. والسلام

الزراعة السورية

في الزمن القديم وفي ايامنا

للشاب الفاضل الاديب سليم افندي اصفر

لن المقرَّر انَّ بلاد الشام اشتهرت منذ القدم بريعها وخِصب تُربتها. وذلك امرٌ تشهد بهِ اساطير الاوَّلين ويثبتهُ النظر في طبقات ارضنا

ثمَّ بقيت سورية على حالتها من العمران الى عهد الرومانيين في القرون الاولى بعد المسيح يعدونها لمحصولاتها العديدة من اهراء رومة

اما اليوم فأننا نجد زراعة سورية قد تقهقرت وبلغت الى حدّ من الانحطاط يُرثى لهُ. فيا ترى ما سبب هذا الاختلاف أفيكون ناتجاً من تغيُّر طرأ على هواء بلادنا واحوال جوّنا؟ لا لعمري فان الآثار الجوية في سورية وفلسطين لم تكد تتحوَّل متقلبة مع

الأيام كما اثبت ذلك حضرة الاب لامنس في مقالة حديثة وضعها في هذا الصدد(١ .
امّا رطوبة الارض فقد قلّت شيئاً ما منذ قُطعت الغابات القديمة وخفّت بسبب ذلك الغيوث المدرارة التي كانت تروي الارض بغزارة وتتوالى في جميع فصول السّنة

وعلى ظنّنا انّ العلّة الكبرى لهذا التقهقر انّما هي التواني الذي مدّ رواقهُ على اهل وطننا. وبينما نرى الزراعة تتمو راقية معارج الفلاح في جميع البلاد لا يكاد مواطنونا يبدون حراكاً لتحسين التربة واتخاذ الوسائل العديدة التي بلّغت الحراثة في انحاء المعمور ادرج كمالها فاستغلّ مَن سوانا الغلاّت الوافرة من اراضيهم ونحن لم نحصل من تربة ارضنا الّا التزر الزهيد

وفي بادئ الامر لا أحبّ ان ينسبني القرّاء الى المغالاة في اتخاذ الاساليب المستحدثة للفلاحة فاضرب صفحاً عن آلات كثيرة يمكن استخدامها لهذه الغاية وعن التسميد الكيموي وما شاكل ذلك من الوسائط التي يأنف ارباب الزراعة من اتخاذها لما تستلزم من النفقات الطائلة والاختبار

وانني اكتفي بتعداد بعض الاعمال الزراعية والتحسينات القريبة المنال وما لا يقتضي كُلفةً كبرى كما انني اذكر الادوات التي باستعمالها يحصل للزارع اقتصاد ظاهر

اذا اعتبرنا حالة الارض في بلاد الشام وجدنا انّ تربتها كنزٌ ثمين ومعدن ثروة الاهلين بيد انّ هذا الكنز دفين ينبغي لاستخراجهِ من بطن الارض بعض الكدّ والشغل وذلك بان تُقلب التربة قلباً وتُحفر حفراً بليغاً يُفني اصول الاعشاب الباطلة ويُخفي مَوات الارض لا كما يفعل الفلاّحون في بلادنا اذ يخمشون وجه الارض بمحراثهم لا يبلغون من عُمقها الّا شبراً او شبرَين

وقبل ان نبيّن ما تحتاج اليهِ الارض منَ الشغل لتأتي بغلّتها وافرةً زكيّة لا بُدّ من تقديم بعض افادات عن طبيعة النبات وكيفية اغتذائهِ

من المعلوم ان للنبات حياةً لا تُدرَك لها من غذاء يحفظها ويقوّيها. وهذا القوت يحلّلهُ النبات من عناصر الهواء او يمتصّهُ من تربة الارض فيُحيلهُ الى جوهرهِ

واوّل ما يدخل في نسيج النبات الماء او بالاحرى ركناهُ الاكسيجين والهيدروجين

(١ Le Climat Syro-Palestinien, Autrefois et Aujourd'hui, *Etudes*, 20 Sept. 1898.

ثم الكربون ثم الازوت مع موادّ أخرى معدنيَّة نجدها في رماد كلّ النباتات كالحامض الفُسفوري والاشنان والكلس وهلمَّ جرًّا

ومن عجيب حكمة الباري انهُ عزَّ وجلَّ جهز للنبات قوتهُ يأتيهِ بهِ هنيئاً مريئاً. فينال النبات ماءهُ من امطار السماء تخرق التربة وتنفذ منها الى اصول المزروعات وعروق الاشجار. وينال من الهواء الكروي حاجتهُ من الكربون وذلك بان تحلّل اوراقهُ الخضراء بقوَّة اشعّة الشمس ما ينبثُّ في الجوّ من الحامض الكربونيك. فاذا امتصّ النبات عنصر الكربون امتزج فيهِ بركنَي الماء وحصلت لهُ من هذا المزيج مادَّتهُ النباتية على طرقٍ شتى تختلف مع اختلاف اصناف المزروعات وهكذا يتولَّد سكَّر الاثمار والشمندر ونشا البرّ ولُباب البطاطا ومادَّة الخشب النسجيَّة ومادَّة السنديان والعفص الدبغيَّة وراتينج الصنوبر

وممَّا يدخل في النبات الاغذية المعدنيَّة فانَّها تتأتَّى من فتيت الحجارة الداخل في جسم الارض لا يُستثنى من ذلك غير مزيج الازوت بالمعادن. امَّا الازوت نفسهُ فان النبات لا يقوى على استخراجهِ رأساً من الهواء مع كثرتهِ في الجوّ وانَّما يستخلصهُ في الغالب من الموادّ الازوتيَّة الموجودة في التربة ولاسيما من مزيج النطرون والقلى الحاصل من هذه الموادّ المذكورة

ولقد ساء كثيرون ظنًّا اذ يتوهَّمون انَّ الارض ساكنة جامدة ميتة والاولى ان يقال انَّ لها حياةً عظيمة تبدو بآثار جلية وتُنبئ بقوَّتها المنعشة. وأحسن الاقدمون اذ سمَّوها بالوالدة الكبرى (alma mater) يريدون انها كامّ لا تزال في الخاص لتقوم بحاجة ابنائها وقوتهم اليومي .

فاذا ولجنا بنظر العقل في حجر هذه الامّ وجدنا الحياةَ فيها اشكالًا ترى فيها عددًا من الحُيَيْنات لا يحصيهِ الَّا الخالق وهي تجول في وسط الارض بلا انقطاع لا يخلو منها مكان مهما كان حرجًا صغيرًا فتلك هي الميكروبات التي اكثر من وصفها علماء عصرنا. وهذه الكائنات لها اعمال عجيبة في نموّ النبات كما انَّها تحتاج الى النبات لقوام معاشها وهكذا يتبادلان في المنافع ويتشاركان في الخيرات (١ فانَّ الميكروب لا غنى

١) E. Gain : *Précis de Chimie*, 1895

لهُ عن المادَّة الآليَّة التي هي كثيرة في النبات فتراهُ يلتصق بهِ متشبثًا لنوال حاجتهِ. بيدَ انَّ النبات ايضًا في حاجة ماسَّة الى الازوت فيحملهُ الميكروب ويجيزهُ اليهِ بعد ان استقرض منهُ مادَّتهُ الآليَّة. وعلى هذه الصورة ترى الميكروب يرتزق من عمل النبات والنبات يغتذي بمحصول شغل الميكروب (١. فسبحان الخالق الذي صرف همة مخلوقاته الى الائتلاف تُساعد بعضها بعضًا فتستفيد من خواصّ بعضها

ولكن اذا كان في بعض الميكروب منافع جمّة للفلاحة نجد في غيرهِ ايضًا آفاتٍ عديدة تستدعي من ارباب الفلاحة حربًا عوانًا لا تُخمَد سعيرها ولا تخفُّ اوزارها وليست هذه الحرب الّا اختيار الوسائل التي تصلح لحياة النبات ونموّهِ كما سيأتي

فممَّا سبق امكن للقرَّاء ان يفهموا ما اودع الله في النباتات من الاجهزة العجيبة لتجتذب لها من الهواء والتربة ما يصلح لتحويل الموادّ الغير الآليَّة الى آليَّة. وذاك لعمري فعل يُعدّ من غرائب الكون وعجائب الطبيعة فيرتقي الجماد الميت من طبقتهِ السُّفلى الى طبقة اشرف ذات حركة ونموّ وحياة

ولعلّ معترضًا يتصدَّى لنا فيقول: فان كانت الارض على ما وصفت وهي اشبه بمصنَع عظيم فيهِ ربوات الوفِ من عمَلة الحشرات تقوم بأود النبات وتقضي لوازمهُ فما الحاجة اذن الى الحراثة. أجبنا انَّ الحراثة المنظَّمة تَقلب التربة قلبًا تامًّا بحيث ينفذ في احشائها اوكسيجين الهواء وهذا العنصر كما لا يخفى هو ركن الحياة ولولاهُ لَما قامت كلُّ هذه العوامل بشغلها قيامًا حسنًا. ولا بُدَّ لذلك من سكَّة قويَّة تخدُّ الارض وتبالغ في شقّها. وعليهِ فانَّ الحراث المعهود في بلادنا لا يفي بهذا الحاجة فينبغي استبدالهُ بما هو اشدّ فعلًا. وعلى كل حال لا يكفي لفلاحة الارض ان يجرَّ بالمحراث بقراتٌ فتيَّة او ايضًا حمير مهزولة كما اعتاد ذلك بعض اهالي البقاع وشاهدناهُ مرارًا بالعيان

وما قدَّمتهُ من القول عن الحراث يصحُّ ايضًا في بقيَّة ادوات الفلاحة كآلة درس الاكداس مثلًا فانَّ النَّورج المتخذ لذلك قد بطل استعمالهُ في كلّ البلاد المتمدّنة لما فيهِ من الخلل فكيف يداوم السوريّون على استخدامهِ

١) واعلم انَّ البقول اذا كثرت في ارض اغنتها بكميَّة عظيمة من الازوت وانَّما الفضل في ذلك لبعض الميكروبات. وكذلك البور لا يُحسّن الارض ويريحها الّا لنموّ الميكروب فيها سنة خلوّها من النبات

ومن فوائد علم الفلاحة ان يتلافى اربابها خللاً آخر وذلك انَّ النبات لا يتَّسات بكل صنف من الاغذية دون افراز بل لهُ في طبعهِ قوَّةٌ اختياريَّةٌ يجتذب بها بعض المواد دون ان يُبالي بانساب ما يوجد منها في التربة فعلى الزارع الحاذق ألا يدع الارض تخلو من هذه الاركان

واحسن طريقة لذلك علم تنسيق المزدرعات الذي كتبنا عنهُ مقالة مطوَّلة في المشرق فعليك بالمراجعة (١٧٤:١ , ١٩٣) . وحسبنا هنا بالقول ان تبديل المزروعات في الارض الواحدة كلَّ سنتين على مألوف عادة اهل بلادنا تبعاً لطريقة قدماء الرومان لم يفِ بالمقصود. وقد آثر الآن ارباب الزراعة الاوربيَّة بعد اجرائهم الاختبارات المتعدّدة طريقة ابدال المزدرعات على مدار ثلاث سنين. ويسرُّنا انَّ بعض السوريين اخذوا في اتباع هذه الطريقة المستحدثة لكنهم يخطئون بتنسيقهم اذ يعقبون البور بالقمح ثم بالشعير. والصواب ان يعقبوهُ سنةً بالبذور ثم بالبقول فذلك اصلح للتربة

ولكن ليس هذا بكافٍ فانَّ بلادنا كانت تغلُّ غلاَّتٍ طيّبة من القطن والكتَّان والقنب والخروع ولا تكاد ترى الآن اثرًا لهذه المزروعات او تراها على شفا الفناء. على انَّ كثيرًا ما كانت مجلبة للثروة يعتبرها الاجانب لجودتها نخصُّ منها بالذكر القطن الذي كان يزرع في فلسطين في جوار حيفا وعكّة وصور وصيداء. ولاسيما في شمالي سوريَّة وكان الغرباء يقبلون على القطن السوريّ لشدَّة بياضهِ ومرونتهِ . واليوم قد تغلَّبت عليهِ الاقطان الاجنبيَّة لم يبقَ من قطننا الّا الشيء القليل ينبت في جهات حلب ويُستعمل في حمص وحماة ودمشق(١

هذا وكم من بقول وخضراوات يزكو زرعها في جنوبيّ اوربَّة ولو زُرعت في اقطارنا السوريَّة لأتت بدخول طيّب لاصحابها. ولنا ضمين عن المستقبل ما رأيناهُ في الماضي فانَّ كثيرًا من احرار البقول والاثمار التي كانت مجهولة تماماً في برّ الشام صارت اليوم تُباع بالاسواق باثمان بَخسة. فلنا اذن الامل الوطيد انَّ الزرَّاعين ينهضون بهمّتهم ويتّخذون الوسائل لاصلاح حالة الفلاحة فتزيد بها بلادنا حسناً وفلاحاً

---

١) هذه افادة اقتبسناها من جغرافيَّة سوريَّة وهو كتاب لحضرة الاب ه . لامنس لم ينشر بعدُ بالطبع